﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ : هذا الاستفهام للإنكار، والتعجيب من حالهم، ومعنى ﴿ينظرون﴾: أي التفكر والاعتبار ، و ليس المقصود يبصرون البصر المعتاد، وإنما نظر، وإلا فهم ينظرون إلى الإبل صباح مساء، لأنها كانت أنفَس أموالهم. ومن تأمل في خلقة الجمل، وجد أن خلقته مميزة من بين سائر الحيوانات، هذا الظهر المسنم، وهذه الرقبة الطويلة، تفارق كثيراً من أنواع الحيوانات. وفي هيئته تلك ما تجعله مهيئاً للركوب، ولحمل الأشياء الثقيلة، وتحمل العطش والمشاق. وهذا الوبر جعله الله تعالى على جسمه، وقاءً له في الشتاء، وسبباً لعدم فقده للماء وتبخره، في الصيف.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: نقلة أخرى، ومشهد جديد، هذه السماء المبنية، خَلق عظيم، سقف مرفوع، لا نرى له عمداً ﴿..بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..﴾[الرعد-2]، ولهذا قيل إن معنى قوله ﴿.. بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..﴾ أنه لا يوجد عمد أصلاً،كما يروى عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل بل ثَمَّ عمد، لكنها غير مرئية، كما روي عن إياس، وقتادة، ويكون رفعها بالنواميسى الكونية الطبيعية[1]، التي خلق الله تعالى عليها هذا الكون، فهذا البناء الشاهق، هذه السبع الشداد، لا تقع على الأرض. ﴿..وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ..﴾ [الحج:65] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا..﴾ [فاطر: 41] ، فالله تعالى هو الممسك لها، فلو شاء الله لوقعت، وسحقت الخلق كلهم.

---

[1] تفسير الطبري (13/409-410).

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾: الجبال خلق عظيم، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين السماء، والأرض، والجبال، ﴿..كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ النصب يكون للخيمة، وذلك أن هيئة الجبل، كهيئة الخيمة، مسنم، وله في الأرض جذور راسخة. ولهذا قال في سورة (عم) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[النبأ: 7]. وحينما يقف المرء أمام الجبل، يشعر بالتصاغر أمام هذا الخلق العظيم، وقد يكون جبلاً من أصغر الجبال، فكيف إذا كان من الجبال الشاهقة، التي يقاس ارتفاعها بالكيلومترات، الله أكبر! هذه الجبال تسبح الله ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ-10] فهذه الجبال تسبح الله وتخشاه، وتعظمه، وتشفق من حمل الأمانة.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾: نقلة من أعلى إلى أسفل، هذه الأرض التي نَدِبُّ عليها، وتعيش عليها مختلف الخلائق، كيف سطحها الله تعالى، وجعلها مهيأة للعيش فيها، والسير في أرجائها؟! وقد استدل بعض العلماء، ومنهم السيوطي، على أن الأرض مسطحة، وليست كروية، فقال: "ظاهر قوله: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ظاهر في أن الأرض سطح، وعليه علماء الشرع، لا كرة، كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع"[٢] ا.هـ احترز: أن الإنسان لو اعتقد أنها كرة، فإن ذلك لا ينقض ركناً من أركان الشرع، واستدل بالآية على أن الأرض مسطحة! وقوله "عليه علماء الشرع"، ليس مسلماً، بل عليه بعضهم، فإن شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- وهو سابق له، كان يصرح بكروية الأرض. ومما يستدل به على كرويتها قول الله تعالى: ﴿..يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ..﴾ [الزمر: 5]، والليل والنهار إنما يقعان على الأرض، ففي حركتهما، وتناوبهما، ينشأ هذا الشكل الكروي، ثم إن الحس والواقع يقطعان قطعاً جازماً أنها كروية. والجمع بين هذا، وبين قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ إن هذا بحسب نظر الناظر القاصر، يرى الأرض مسطحة، حتى ينقطع بصره بخط الأفق، ومما

---

[٢] تفسير الجلالين (805).

يدلك على أنها كروية أنك إذا أقبلت على جهة من الجهات، فإنك أول ما ترى منها عاليها، ترى، مثلاً، رؤوس المآذن، أو رؤوس الجبال، فكلما اقتربت نزل البصر إلى ما دون ذلك.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾: التذكير: الدلالة على الحق، المصحوب بالموعظة التي تحرك القلوب، ﴿إنما﴾ أداة حصر يعني: أن مهمتك، ووظيفتك هي البلاغ، والذكرى.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ﴾: يعني على المخاطبين من المشركين ﴿..بِمُصَيْطِرٍ﴾ يعني بمتسلط، وجبار. والقراءة المشهورة بالصاد، كما عند عاصم، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ولكن ثم قراءة بالسين عند ابن عامر، والكسائي، في رواية. وهما لفظان متطابقان في الدلالة على معنى التسلط، والتجبر، وذلك أن النبي ﷺ لا يملك أن يدخل الإيمان، والذكرى في قلوبهم قسراً. وقد قال بعض المفسرين(الطبري، القرطبي، البغوي)[٣] إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، والصحيح في آيات الجهاد أنها ليست من قبيل المنسوخ، وإنما تُنَزَّل كل آية على الحال الذي يناسبها، فلا يقال إن آية السيف نسخت جميع الآيات،نعم نسختها في الوقت الذي نزلت فيه، لكن إذا تجدد حال من الضعف لأهل الإسلام، ولم يتمكنوا من رفع علم الجهاد، فإنهم يطبقون ما يناسب الحال. مثال ذلك: قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: 29] فهذا غير متأتٍ الآن، وغير ممكن، وذلك بسبب ما آل إليه حال الأمة من الضعف، فلهذا ربما يتنزل على الحال الأمر بالكف، فإن الله تعالى قد قال للمؤمنين في حال الضعف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:77] فينبغي أن تطبق الآيات المتعلقة بالجهاد بحسب الحال لا يتعسف في تطبيقها على غير ما يناسبها. فقوله : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ هذه آية محكمة، غير منسوخة، وذلك أن النبي ﷺ لا يملك إدخال الإيمان، والذكرى، في

---

[٣] تفسير الطبري (341/24)، تفسير القرطبي(37/20)، تفسير البغوي (246/5).

قلوبهم قسرًا وإكراهًا. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : 56].

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾: أي لكن من تولى وكفر، ومعنى ﴿..وَكَفَرَ﴾ أي أعرض، وصد.

فإذا صرف الإنسان فكره، وأعرض بعقله عن النظر في دين الله كفر بذلك، حتى لو لم يقل كلام كفر، وحتى لو لم يقع منه شرك، وعبادة أصنام. وقد مثل لذلك بما جرى من أبناء عبد ياليل، حين دعاهم النبي ﷺ، فقد سألته عائشة، رضي الله عنها، فقالت: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ، وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأخشبين فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) متفق عليه [٤].

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾: هذا وعيد من الله ﷻ للكافر المتولي، بأشد العذاب، لقوله: ﴿..الْأَكْبَرَ﴾ وهو عذاب النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾: أي مرجعهم جميعاً.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾: أي جزاؤهم، كل هذه الخلائق تؤوب إلى الله ﷻ، وحسابها عليه، لا يخرجون من سلطان الله، ولا ينفذون من ملكه.

فيا لها من سورة عظيمة، وموعظة بليغة لمن تدبرها!.

---

[٤] صحيح البخاري (3231)، صحيح مسلم (1795).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: شدة أهوال يوم القيامة، وذلك أنه سماها (الْغَاشِيَةِ).

الفائدة الثانية: سوء عاقبة الكافرين، وشدة عذابهم في النار، حساً، ومعنىً.

الفائدة الثالثة: حسن عاقبة المؤمنين، وكمال نعيمهم في الجنة حساً، ومعنى.

الفائدة الرابعة: أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق المسميات.

الفائدة الخامسة: إثبات المعنى العام، المشترك في الأذهان، ليُفهم الخطاب.

الفائدة السادسة: لفت الأنظار إلى التدبر في خلق الله : وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ..﴾. ولهذا ينبغي للدعاة لله أن يستعملوا هذه الطريقة، وأن يحركوا العقول الواكدة، والأذهان البليدة، لأن الذهن البليد، والعقل الغافل، مغلق لا يقبل موعظة، وذكرى. فإذا نفض عنه هذا الغبار أصبح صالحًا للاستقبال .

الفائدة السابعة: قرب دلائل الربوبية ومباشرتها للمكلفين: فالسماء، والأرض، والجبال، والإبل، لا تحتاج في إدراكها إلى كد، وعناء. فدلائل الربوبية قريبة جدًا، بل هناك أقرب مما ذُكر، كما قال في آية أخرى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات-21].

الفائدة الثامنة: الأمر بالتذكير، واستعمال البراهين الحسية، والعقلية: لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ بعد أن قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ وهذا يستدعي إعمال الأدوات الحسية؛ من البصر، والسمع وغيرها، واستعمال العقل في الاستنباط.

الفائدة التاسعة: أن الداعية لا يملك إلا البيان، وإنما الهدى بيد الله: وأثر هذا على نفس الداعية ألا يشعر بالإحباط والخذلان، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] ، فينبغي للداعية أن يجتهد في دعوته، وإبلاغها، وألا يشغل باله بالنتائج، فذلك إلى الله ﷻ، ولو شاء الله ﷻ لآمن من في الأرض كلهم جميعاً.

الفائدة العاشرة: لا إكراه في الدين: قال تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ فأمر الدين والعقيدة لا يمكن أن يقع فيه إكراه، ولا يمكن أن تُدخل العقيدة في نفس الإنسان كرهًا. أما إقامة الدين، بمعنى الشرع، والنظام، فهذا من الأحكام السلطانية، التي إذا كتب الله تعالى لأهل دينه التمكين، فإنهم يلزمون الناس بها، فمن قبل دين الله فله ما لنا، وعليه ما علينا، وهو كأحدنا، ومن أبى، فإن عليه أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر، لكي يكون الدين لله، و معنى ذلك أنه خضع لدين الله، ولشرعه، ولأئمة المسلمين، فإن أبى فالسيف. هكذا رتب الله تعالى ورسوله ﷺ الأمور.

الفائدة الحادية عشرة: الوعيد الشديد على الكافر المعرض: قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

الفائدة الثانية عشرة: أن مجرد الإعراض، والتولي نوع من أنواع الكفر ويسمى (كفر الإعراض.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات البعث والجزاء: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.